

المحاضرة الرابعة

استكمال التوجهات النظرية في علم الاجتماع الحضري

عناصر المحاضرة

- ثالثاً: نظرية الثقافة الحضرية
- رابعاً: نظرية العولمة والفروق الريفية والحضرية
- الخاتمة.

ثالثاً: نظرية الثقافة الحضرية

- تنطلق هذه النظرية من أعمال كل من لويس ويرث وروبرت ردفيلد ، فمن اتخذ – على حد تعبير جوبرج - من المدينة متغيراً أساسياً لتفسير بعض الأنماط الحضرية جعلت المدينة تأخذ محتوى ثقافياً خاصاً وتصبح تبعاً لذلك متغيراً تحليلياً لتفسير هذا المحتوى ، بحيث تعرض الثقافة الحضرية باعتبارها طريقة للحياة.
- لذا فقد نظر مجموعة من العلماء المحدثين في علم الاجتماع الحضري مثل (لويس ويرث وكينجسلي دافيز وهاولي ولامبارد وهومز ومورس وجانيب أبو لغد) إلى التحضر من وجهة نظر مزدوجة ، من حيث رؤية التحضر كتمركز جغرافي للسكان والأنشطة غير الزراعية في موقع ذي شكل وحجم معينين.
- فهم في الوقت نفسه ينظرون إلى التحضر باعتباره انتشار جغرافي لأنماط القيم والسلوك الحضرية السائدة فضلاً عن المؤسسات الحضرية القائمة.
- فالحياة الحضرية على ذلك عملية تسعى في النهاية إلى إحداث التنظيم المكاني لعناصر البناء الاجتماعي السائد بمنطقة جغرافية محددة.
- وإذا كان البناء الاجتماعي يتكون من مجموعة متصلة ومنمطة من العلاقات الاجتماعية التي تبرز من خلالها أدوار الأفراد ووظائفهم فإن للبناء الاجتماعي الحضري أهمية حيوية في تشكيل الشكل الحضري السائد فهو يتسم بخصائص معينة لعل أهمها سيادة العلاقات غير الشخصية التي تظهر في شكل التفاعلات والعلاقات المستمرة بين الأفراد.
- كما أن درجة التجانس الثقافي بالمركز الحضري تؤثر على كيفية ممارسة الأفراد لأدوارهم وعلى نوعية العلاقة الاجتماعية السائدة بين ساكني النمط الحضري والوافدين إليها من المناطق الريفية ، ومن الطبيعي أن ترتبط ظاهرة تركيز السكان بالمركز الحضري بحيث تؤثر على تكوين الطبقة وتحديد علاقتها بغيرها من الطبقات.
- غير أن البناء الاجتماعي في المجتمع الحضري لا ينشأ من فراغ ولا يتحرك إلى غير هدف، وإنما يتحدد إطاره بالهيكل الثقافي للمجتمع الكلي أولاً والحضري ثانياً، وفي هذا الإطار الثقافي يحكمه نسق القيم السائد ومن الطبيعي أن يختلف هذا النسق بين أنماط المجتمع - ريفه وحضره - ومن هنا تتحدد درجة التجانس الثقافي بين نمطي المجتمع من ناحية وتتفاوت درجة انسجام الشخص الوافد إلى المركز الحضري مع الإطار الثقافي الجديد بالنسبة له من ناحية أخرى.
- ويعد "أورسكار لويس من الرواد الأوائل الذين تناولوا فكرة التغير الثقافي الذي تعرض له الوافد الجديد إلى المركز الحضري ، وتدارس بعمق عملية التكيف الاجتماعي أو التوافق الاجتماعي التي يحاول تحقيقها هذا الوافد مع إطار ثقافي مغاير.
- كما أنه عالج ليس فقط نظرياً وإنما عن طريق الدراسات التجريبية أيضاً أسلوب الحياة الذي يختاره في بعض الأحيان أو يضطره في غالبية الأحيان للمعيشة فقط بالنمط الحضري ، وفي إطار ذلك عرض لويس فكرته التي تأسست على تفرع ثنائي يميز بين نمطين للمعيشة في المجتمع الحضري وهما النمط الشعبي – الحضري والنمط الريفي الحضري.

• وكان يُجمع كثير من منظري النظرية الحضرية على أن مقالة لويس ويرث الحضرية كطريقة في الحياة أول عمل كلاسيكي أرسى فيه الدعوة الأولى لهذا التوجه النظري الذي ظهر لدى كثير من علماء الاجتماع في محاولتهم الإجابة على التساؤل الذي يدور حول الأنماط والعمليات التي تتضمنها عملية تحول طريقة الحياة السابقة على التصنيع والتحضر إلى نظام صناعي حضري.

• وقد حاول ويرث صياغة نظرية متكاملة من خلال طرح تعريف وسؤال وإجابات متتالية على هذا السؤال:-

• أما التعريف فهو الذي بدأ به ويرث وكان تعريفاً للمدينة مؤداه: أنها موقع دائم يتميز بكبر الحجم وبكثافة عالية نسبياً وبدرجة ملحوظة من اللاتجانس بين سكانه.

• أما السؤال فيدور حول الصور والأشكال الجديدة للحياة الاجتماعية، والتي قد ينجم عن الخصائص الأساسية المميزة للمجتمع الحضري (الحجم والكثافة واللاتجانس) أما إجابته على هذا السؤال والتي لخصت تصوره للمجتمع الحضري فكانت على النحو التالي:-

• يبدأ تصور ويرث بافتراض أن الحجم والكثافة والتغاير واللاتجانس متغيرات أساسية أو مستقلة أو خصائص مميزة للمجتمع الحضري تسلم بدورها إلى عدد من الخصائص التي ترتبط بطبيعة الحياة الحضرية وشخصية ساكن كبير الحضر.

• فمن ناحية يرى ويرث أنه كلما كبر حجم المجتمع الحضري (المدينة) اتسع نطاق التنوع الفردي وارتفع معدل التمايز الاجتماعي بين الأفراد، الأمر الذي يؤدي إلى زيادة انتشار العزل المكاني للأفراد والجماعات على أساس السلالة أو المهنة أو المكانة.

• ويؤدي هذا العزل المكاني بدوره إلى إضعاف روابط الجيرة والعواطف التي تنشأ نتيجة المعيشة المشتركة ولأجيال متعاقبة تحت تقليد علم مشترك ويطرب على ذلك انتشار علاقات اجتماعية ذات طابع انقشامي من خلالها يتعرف الحضري على عدد أقل من الأفراد وبدرجة أقل من المودة إلى جانب سيطرة علاقات المنفعة.

• وفي هذا الصدد يقول أن معرفتنا بالآخرين تميل إلى أن ترتبط بعلاقات المنفعة بمعنى أن الدور الذي يلعبه الآخرون في حياتنا ينظر إليه على أنه وسيلة لإنجاز وتحقيق أهدافنا ، وفي الوقت الذي يستطيع فيه الفرد التعبير التلقائي عن الذات والروح المعنوية والإحساس بالمشاركة، وبنفس الأسلوب عالج ويرث متغير الثقافة كخاصية أساسية ومميزة للمجتمع الحضري، يترتب عليها خصائص أخرى.

• لقد تصور ويرث أن الكثافة تؤكد الآثار الاجتماعية والنفسية الناجمة عن الحجم فهي تزيد من درجات التقارب الفيزيقي بين الأفراد في مقابل التباين الاجتماعي ، كما أنها أخيراً تزيد العزل المكاني بمعنى انفصال الجماعات السكنية عن بعضها البعض في شكل مجاورات أو أحياء متجانسة نسبياً.

• أما متغير اللاتجانس فقد كان في ذاته نتيجة ترتبت على متغيري الحجم والكثافة فهو استجابة مباشرة لضرورة اقتصادية (تقسيم العمل) وأخرى اجتماعية تمثل الاختلافات والفروق المتوقعة وجودها في جماعات كثيفة من السكان.

• ولكن اللاتجانس (التغاير) يؤدي بدوره إلى سلسلة من المصاحبات الاجتماعية أهمها تطوير نسق أكثر تعقيداً للتدرج الطبقي وزيادة معدلات الحراك بأشكاله الفيزيائية والاجتماعية وتطوير شخصية عالمية، وتتفاعل هذه الأبعاد الثلاثة (الحجم والكثافة واللاتجانس) في نظرية ويرث مع بعضها لتؤدي إلى طريقة فريدة في الحياة أطلق عليها الحضرية.

• وكان ويرث متفانلاً بشأن الحضرية كطريقة في الحياة ، فقد نظر ويرث إلى المدينة باعتبارها حمض يذيب مع الوقت القيم التقليدية ويقوض مؤسسات وعلاقات ذات معنى، كما رأى إمكانات الحريات الكبيرة في المدينة ولكنه كان قلقاً من أن تتساوى هذه الجوانب الإيجابية حتماً مع التفكك الذي لاحظته في مدينة شيكاغو المضطربة ، ورأى إمكانية تحقيق البيئة الحضرية الإنسانية فقط من خلال عمليات التخطيط للسيطرة على المدينة.

- كذلك من الإسهامات التي عنيت بالثقافة الحضرية ما قدمه روبرت ردفيلد عن فكرة متصل الفولك الحضري والتي صاغها من منظور التطور الثقافي والايكولوجي في حالة التقليد والفولك إلى حالة التحديث والحضرية.
- وتستند فكرة المتصل الريفي الحضري من الناحية النظرية على افتراض الأول هو أن المجتمعات المحلية تتدرج بشكل مستمر ومنظم من الريفية إلى الحضرية وفقاً لعدد من الخصائص والثاني أن هذا التدرج يصاحبه بالضرورة اختلافات أو فروق متسقة في أنماط السلوك.
- وأن المجتمع الحضري في تصور ردفيلد له خصائص وثقافة مميزة تبدو واضحة في ضوء اختلافها عن خصائص وثقافة مجتمع الفولك حيث تسود خصائص التفكك والفردية والعلمانية على طرف نقيض مع خصائص فولكية أهمها سيطرة التقليدية والجمعية ونزعة نحو المقدسات.
- أما التطور فهو في نظره انتقال من المجتمع الشعبي إلى المجتمع الحضري من خلال زيادة عمليات التغير أو اللاتجانس الاجتماعي وإمكانيات التفاعل وفقدان العزلة أو زيادة الاحتكاك الثقافي بالمجتمعات والثقافات الأخرى.
- لكن الدراسات الواقعية التي أجراها كثير من الباحثين الأمريكيين مثل ويليام جوردن وهويت وجانز قد أوضحت أن ويرث كان مبالغاً إلى حد كبير في تقدير العلمانية والتفكك كسمات مميزة للمجتمع الحضري حتى في الولايات المتحدة الأمريكية.
- كذلك فإن تأكيد روبرت ردفيلد للتفكك الاجتماعي كنتيجة مصاحبة بالضرورة للتحويل الحضري كان من أهم نقاط الضعف التي أبرزتها تلك الدراسات التي حاولت اختيار هذه النظرية من واقع مجتمعات أخرى فلقد توصل أوسكار لويوس إلى أن التحضر في مدينة المكسيك لم يصاحب بالضرورة بتدهور النظام الاجتماعي أو الأخلاقي.
- وهذا ما أكدته أيضاً الدراسات التي أجريت على المدن الأفريقية مثل دراسة مارس عن الأسرة والتغير الاجتماعي في المدينة الأفريقية فلقد أوضحت أنه برغم ما شهدته العديد من البيئات الحضرية من عملية سريعة للنقد والتحول الحضري إلا أن الأنماط التقليدية لا تزال تعيش جنباً إلى جنب مع الأشكال التنظيمية الجديدة دون أن يترتب على ذلك أي نوع من التفكك الاجتماعي.
- لكن الجدير بالذكر أن هذه الدراسات قد ازدادت ثراء وحضرية عندما دعم أوسكار لويوس بدراسته التطبيقية والتجريبية على الأحياء المتخلفة بالمدن الفقيرة في المجتمعات التي مازالت في طور التخلف، ولم يكن لويوس يدرس الأحياء الفقيرة من الطبقة الدنيا في هذه الأحياء المتخلفة.
- ولعل من أبرز دراساته في هذا الشأن هي التي أجريت على مدينة مكسيكو سيتي عام 1959 م ، وانتهى أوسكار لويوس إلى التوصل إلى ما يشبه نظريته تدور حول ما أسماه ثقافة الفقر وتركز على أنه إذا كان لكل مجتمع ثقافة عامة لها جذور راسخة تمتد لمئات بل آلاف السنين في بعض المجتمعات فإن الفقر أيضاً ثقافة فرعية (مادية وغير مادية) تميز حياة الفقراء وأسلوب معيشتهم.
- وهذا ما جعل كلود فيشر يؤكد على أن الثقافة الفرعية تتمثل في الاختلافات بين السكان والاختلافات السلوكية والثقافية في المناطق ذات الأحجام المختلفة ، وترجع إلى عوامل وسمات السكان مثل العمر والعوامل العرقية والعوامل الديموجرافية والثقافية وغيرها.
- وهكذا يتضح أن نظرية الثقافة الحضرية رغم ما تعرضت له من نقد إلا أنها قد ساعدت في إثراء الدراسات المقارنة حيث كانت المدينة على مر العصور مركزاً لكثير من النشاطات الهامة في المجتمع بل ومركزاً لكثير من التغيرات العميقة.
- فلقد هيأت المدن بطبيعتها الظروف المواتية لتطوير هذه الأنشطة وحدثت هذه التغيرات لتصبح الموطن الطبيعي لكل اختراع وتجديد خاصة وأن المراكز الحضرية تمثل مراكز التنظيم والقوى السياسية ويتركز فيها أنواع التعليم وتخضع لوسائل الضبط الاجتماعي الرسمي وتمارس قدرأ من التأثير والضبط على المجتمعات الريفية ، الأمر الذي جعل هذا الاتجاه النظري يسهم في تطوير الدراسات الحضرية المقارنة.

رابعاً: نظرية العولمة والفروق الريفية والحضرية

• تعد محاولة تحديد الفروق الريفية الحضرية وتحديد الخصائص المميزة لكل نمط محاولة قديمة في تاريخ الفكر الاجتماعي وعلم الاجتماع بدأها المصلح الصيني كونفوشيوس وفلاسفة الإغريق مثل أفلاطون وأرسطو ومفكرو العصور الوسطى كالكس أوغسطين وابن خلدون.

• وقد استمرت هذه المحاولات في علم الاجتماع وظهرت بشكل واضح في أعمال كل من فرديناند توينز و هوارد بيكر و هيربرت سينسر و ماكس فيبر وغيرهم ولعل أهم ما أثمرت عنه هذه المحاولات أنها طورت عدداً من الأدوات التصورية التحليلية التي وجهت ما بذل من جهود بعد ذلك لتطوير نظرية سوسيولوجية عن المجتمع المحلي فكرة النموذج المثالي والنمط التركيبي للمجتمع المحلي والتي كانت تمثل حجر الزاوية في نظريات التعارض كأداة تصورية متطورة لمعالجة المجتمع الحضري الحديث.

• ثم قدم جوبرج إسهاماً واضحاً في تناول قضية الفروق الريفية الحضرية من خلال صياغة جديدة تركز على معالجة البناء السكاني للمجتمعات الريفية والحضرية عبر الزمان والمكان ، اعتقاداً منه بأن هذه المعالجة تخدم مناقشة الأنماط الريفية الحضرية في ثلاثة نماذج من المجتمعات الإنسانية:-

١. المجتمعات التي تمر بمرحلة ما قبل الصناعة.
٢. المجتمعات الانتقالية أو النامية.
٣. المجتمعات المتقدمة صناعياً وتكنولوجياً.

• وذلك على اعتبار أن الجانب الريفي الحضري يختلف اختلافاً جوهرياً بين كل نموذج اجتماعي وآخر ، أي أن هذا البعد في المجتمع قبل الصناعي يختلف عن مثيله في المجتمع الانتقالي، وأخيراً عن المجتمع الصناعي المتقدم، ويرجع هذا الاختلاف إلى طبيعة الشكل التكنولوجي الذي يعتمد عليه كل من هذه النماذج الاجتماعية الثلاثة.

• وبرغم أن جوبرج اعتبر التكنولوجيا هي العامل الرئيسي في تفسير الفروق الريفية الحضرية إلا أنه استخدم عوامل أخرى أثناء عملية التفسير هذه، حيث أن طبيعة المدينة نفسها مسئولة عن بعض الظروف والاختلافات بين الريف والمدينة حيث أن النموذج الحضري غالباً ما يتأثر بشكل السلطة أو القوة أو النظام السياسي والاقتصادي.

• ولذلك فإنه في المجتمع الرأسمالي يختلف عنه في المجتمع الاشتراكي ، ومن جهة أخرى فإن التكنولوجيا وحدها لا تستطيع أن تجعل حياة المدينة ممكنة وإنما يتعين وجود عامل أساسي آخر يتمثل في نمو إطار من المعرفة التنظيمية المعقدة.

• لكن في ظل العولمة وآثارها على العلاقات الريفية الحضرية ذهب ميجي إلى أن مفهوم التقسيم الريفي الحضري المعتمد على التمييز المكاني تقسيم مصطنع يحتاج إلى مراجعة شاملة في إطار نظرية واسعة للنمو الاقتصادي والحضري.

• ولذا رأى أنه بدلاً من التفكير في ثنائية الريفي والحضري فإنه من الأجدي ضرورة الاهتمام بزيادة التنقل حيث تكون القدرة المتزايدة لانتقال الأشخاص ورؤوس الأموال والمعلومات هي العنصر الرئيسي لعملية التقدم.

• وعلى هذا فإن الاستنتاج الوحيد الذي يمكن استخلاصه يتمثل في أن تدفق رؤوس الأموال والمعلومات هو تدفق سريع وغير مشروط بينما مازال تدفق الأفراد والسلع - بالرغم من انكماش بعدى الوقت والمسافة - خاضعاً لمحددات المكان.

• ولذا فقد أدرك كثير من المخططين على تركيز العمليات على مركزية المناطق الحضرية وتقلص المناطق الريفية وبالتالي فإن ثورة التدفقات التي تتم على الصعيد العالمي وتحدث بحرية وفي قفزات سريعة جعلت من مهمة تعميم الديناميات الريفية الحضرية أمراً بالغ التعقيد.

• كما أكد ذلك كاسيل في كتابه المدينة المعلوماتية في عام 1989 م ذلك في قوله أن الاقتصاد الدولي الجديد قد خلق هندسة متغيرة للإنتاج والاستهلاك والعمالة وإدارة رؤوس الأموال والمعلومات ، تلك الهندسة التي تتكرر المعنى الخاص لأي مكان يقع خارج

موقعه في شبكة ذات تغييرات حادة غير رحيمة استجابة للرسائل والإشارات غير المرئية والنماذج غير المعروفة ، وبالتالي يعتبر فهم أثر هذه العولمة على الديناميات الريفية الحضرية في الدول النامية أمراً عزيز المنال.

•لذا فمن الأهمية إنراك ضرورة استبدال التمييز بين الريفي والحضري بفكرة شبكات التفاعلات لأن تقسيم الريفي الحضري في نمط(دعه يعمل دعه يمر)التي تقوم على التنمية في الوقت الحالي سيؤدى إلى انهياره تماماً وبالتالي فهناك حاجة ماسة للبحث عن مذاهب جديدة تبتعد عن ثنائية الريفي الحضري.

•فانهيار الوقت وتقلص المكان وتداخل الحدود بين الريفي والحضري يشير إلى اهتمام جديد بتدفق السكان والسلع ورؤوس الأموال عبر المكان الذي لا يكون ريفي خالص أو حضري خالص ولكنه خليط من الاثنين ويكون هذا الخليط بارزاً بشكل واضح في الدول النامية وبخاصة في المناطق الحضرية بمراكز المدينة المترابلتان.

•ونظراً لتشابك وتداخل العلاقات بين المجتمع الريفي والمجتمع الحضري وما برز من ظواهر مثل تريف المدينة وتحضر الريف وبخاصة في المجتمعات النامية فهذا يتطلب تشكيل ما يسمى بالديناميات الريفية الحضرية وليس الثنائية التقليدية بين الريفي والحضري.

الخاتمة

•وهكذا يتضح من خلال عرض أهم النماذج النظرية السائدة في علم الاجتماع الحضري أن لكل نظرية من هذه النظريات مواطن من الضعف ، ومواطن أخرى من القوة ، وبالتالي لا يمكن أن تكون أي نظرية منها كافية لتفسير ظواهر الحياة الحضرية ذات الأبعاد والجوانب المتعددة المتباينة.

•كما أن هذه النظريات اهتمت بالتفاصيل الجزئية والبيانات الأمبريقية المحدودة على حساب التنظير السوسيولوجي العام ، وبالتالي فقد أغفلت القضايا النظرية الحيوية كما افترضت إلى المقارنات الحضرية عبر المجتمعات الإنسانية المختلفة مما جعل البعض يذهب إلى أن هذه النظريات كُتبت بطريقة انطباعية.

•وأنها تفتقد إلى التحليل العلمي التفسيري والمعلومات المتعمقة عن الحياة في المدينة ومع هذا فإن هذه النظريات استطاعت أن تمس أهم المشكلات والقضايا التي تواجه الإنسان ساكن المدينة و أن تقدم أسساً نظرية للدراسات والبحوث التي تجرى في علم الاجتماع الحضري المعاصر.

•وعلى هذا فإن علم الاجتماع الحضري مازال في حاجة ماسة إلى إطار نظري واضح المعالم ومتكامل للجوانب لكي يتمكن الباحثون والدارسون من البدء في إجراء دراسات أمبريقية على أساس الانطلاق من فروض قابلة للاختبار تكون لها ثمرة في النهاية.

•حتى لا يضيع الجهد في إجراء دراسات عقيمة لا تسهم في تطور المعرفة في إطار النظرية أو إصلاح المجتمع حيث اتسمت الدراسات الحضرية التي أجريت حتى الآن بغلبة الطابع الوصفي المحدود ، كما اتسمت بغلبة الطابع النفعي والتسليم مسبقاً بمجموعة من المسلمات التي تقوم الدراسة على أسسها.

•ومن أجل هذا أصبحت معظم الدراسات تمثل نسخة واحدة ومكررة كدراسة إيكولوجية المدينة وعملياتها والتوزيع السكاني ودراسة النظام الطبقي والجوانب النفسية لسكان المدينة وغيرها دون الدخول في قضايا نظرية وتطبيقية جديدة تنثري الإطار المعرفي والنظري لعلم الاجتماع الحضري.